# الفينيقيون (البونيقيون) بشمال إفريقيا في ضوء البحث الأثري

زيدون حمد المحيسن و مولاي محمد جانيف

**ملخّص:** تناقش هذه الدراسة عدة نظريات تتعلق بأصل الفينيقيين (البونيقيين) وهويتهم في شمالي أفريقيا. وستكشف دلالة الفينيقيين وأهميتهم التاريخية، والأثرية، وامتدادهم الحضاري . إن التاريخ البونيقي غير معروف بشكل واضح، على الرغم من الأبحاث والدراسات المكثفة في العقود الماضية. ومع ذلك تبقى المواقع المعروفة، كموقع قرطاجة، وطنجة، وموكادور وغيرها، ذات معلومات فقيرة نسبيا وغير واضحة. وورقتنا هذه تلقي مزيداً من الضوء على العالم البونيقي.

***Abstract.*** *Abstract: This study discusses several theories that dealt with the origin and identity of the Phoenicians (punics) in Northern Africa, and will reveal their identity, historical and archaeological importance, and the extension of their culture. In spite of intensive research during the past decades, the Punic period is not well known. The better known sites such as Carthage, Tangier, and Mogador, provided scanty and poor information. Our paper, therefore, will shed more light on the Punic world.*

**مقدمة**

إن الحديث عن الفينيقيين/البونيقيين - بشمالي أفريقيا في ضوء البحث الأثري، معناه أن نخوض في مجاهل تاريخ لم يعترف على الإطلاق بالجغرافيا، ذلك أن صانعي هذا التاريخ لم يستسلموا أبداً لقسوة الجغرافيا ولا لجبروتها.

والواقع أن الفينيقيين حققوا هذا المكسب، بفضل نزوعهم الدائم نحو الانفتاح على الأمم المجاورة والبعيدة. وربما كان هذا السبب رئيساً وراء معرفتنا المسبقة بهذا الشعب، حتى قبل نشوء علم الفينيقيات، ذلك أن مصادر كلاسيكية، فضلاً عن مصادر أخرى، قدمت لنا الكثير عن أخبار هؤلاء القوم، الذين ملأوا الدنيا وشغلوا الناس.

يبدأ التاريخ المبكر للفينيقيين في حدود القرن الثاني عشر ق.م، حين برزت الحضارة الفينيقية مستقلة عن حضارة الكنعانيين، التي كانت تشكّل وحدة يصعب تحديد آفاقها الجغرافية. إن البحث في أصول كلمة "فينيقي" يصعب في ظل الغموض الذي يحيط بهذه اللفظة، على مستوى مدلولها الآني والحضاري.

لهذا السبب ظلت مسألة أصل الفينيقيين مثاراً للجدل بين مجموعة من المختصين، ومجالاً لطرح عدد من النظريات، لا ضير من استعراضها هنا. فأولبرايت (ALbright) يعتقد أن "الكنعانيين" بعد فترة طويلة من الأفول والصراعات الدموية ظهروا شعباً جديداً نشطاً، هو المعروف باسم الفينيقيين (ALbright 1949 : 109 ; 1979 : 328). أما برامكي (Baramki) فيرى أن الحضارة الفينيقية كانت بمثابة إنجاز أسهم فيه شعبان: الكنعانيون، والأيجيون؛ لتتولد بهذا الإنجاز حضارة سامية هندو أوروبية هي الحضارة الفينيقية (Baramki 196 : 10).

هذا الرأي له ما يشابهه عند كوليكان (Culican)، الذي كتب قائلاً: "إن أصل هاتين المدينتين معاً، أي صور وصيدا، بل وأصل الفينيقيين وحضاراتهم بشكل عام، يظل مجهولاً، ما دامت الحفريات والوثائق المكتوبة لم تُلق الضوء على القرنين الحادي عشر والعاشر ق. م. بما فيه الكفاية. غير أنه يبق من الوارد أن ميلادا "فينيقيا" نشأ مع ظهور مجموعة سكانية جديدة تكونت من الغزاة المستوطنين القادمين عبر البحار- أي


(ص ص ٧٣ - ٨٨) ردمد ٨٩٤٧-١٣١٩

من يُعرفون باسم "شعوب البحر" – ومن الكنعانيين سكان السواحل" (Culican 1966 : 72).

حاول بعض الباحثين حل هذه الإشكالية، بوصف هذا الشعب أصيلا في المنطقة، وليس مزيجاً من أعراق مهاجرة[1]، غير أن موسكاتي (Moscati)، يرى أنه ليس هناك في الحقيقة، شعباً فينيقياً يمكن أن يُعد وحدة أثنية قائمة بذاتها، بقدر ما هي مجموعة من ممالك المدن المتجانسة، كان القاسم المشترك بينها الظروف التاريخية الواحدة (Moscati 1963: 490). أما غاربيني (Garbini)، فقد اقترح فكرة جديرة بالاعتبار وجديدة من حيث محتواها، فهو يرى أن "الفينيقيين هم كنعانيو فينيقيا وفلسطين خلال فترة ما بعد ٢٠٠٠ ق.م، وهم يختلفون على المستوى اللغوي (وحتى الإثني) عن كنعانيي الألف الثالثة ق.م، هذا الاختلاف حصل نتيجة لمجيء الأموريين" ( Garbini 1980 : 11).

غير أن معظم الباحثين يكادون يجمعون، على أن كلمة فينيقي ترجع إلى أصول إيجية، حيث عُثر في نصوص مايسينية، على كلمة قرأت هكذا (po-ni-ki-ja) ومعناه الأحمر، أما كلمة (po-ni-ki-jo) فقد كانت تستعمل كدلالة على نبتة، ربما هي نفسها ألـ (Herba-Phoenicia) المذكورة من قبل بليني (Pliny) (Moscati 1970 : 3).

وإننا نجهل تماماً عما إذا كان الأمر على هذا النحو، متى بدأ استخدام هذه الكلمة، ثم كيف اكتسبت مدلولها الأثني؟ وفي نص من مذكرات القائد المصري سنوحي (Si-NUHE) كلمة ربما كانت تعني فينيقيا (Fenkhu) (Pritchard 1969: 21).

وإذا علمنا أن قصة سنوحي، وقعت أحداثها بعد وفاة الفرعون أمنمحات الأول حوالي عام ١٩٦٠ ق.م، فإنه لمن المثير فعلاً أن يكون الفينيقيون قد بلغوا أوج ازدهارهم مع بداية الألف الأولى ق.م، حيث أسسوا مستعمرات كانت بمثابة مراكز تجارية عظيمة، وسط البحر الأبيض المتوسط وغربه. غير أنه مع سنة ٥٧٤ ق.م، تعرضت فينيقيا للغزو البابلي على يد نبوخذ نصر، الذي قضى نهائياً على الكيان السياسي الفينيقي في الشرق، لينتقل بذلك الثقل الحضاري لهذا الشعب العظيم، إلى سواحل الشمال الإفريقي.

ساعدت الجغرافيا الطبيعية للسواحل السورية /اللبنانية، على قيام الحضارة الفينيقية من جانب، ثم على نشاط اقتصادي قائم على التجارة البحرية، من جانب آخر؛ تلك التجارة التي انطلقت من معاقلها الرئيسة: صور، وصيدا، وبيبلوس وأرواد (Arados).

إن من المثير فعلاً أن نجد الانطلاقة الاقتصادية الكبرى للفينيقيين، متزامنة مع أحداث عظيمة شهدها الشرق الأدنى القديم، وهي تعرّض الإمبراطوريتين الحثية والمايسنية للسقوط، ودخول مصر الفرعونية مرحلة ضعفها الثالثة. ولم يكن صعباً على الفينيقيين الخروج من الدائرة في ظل أوضاع من هذا القبيل، ليصبحوا بعد ذلك القوة الاقتصادية المحلية بلا منازع (Whitehouse and Whitehouse 1978 : 120).

إن معرفتنا بهذا الشعب مبنية أساساً على مصادر تاريخية وأثرية، وإذا كانت المصادر الأخيرة، متمثلة في الأشواط العديدة التي قطعها علم الفينيقيات في هذا المجال، فإن المصادر الأولى هي من إنتاج شعوب عايشت الفينيقيين أو سمعت عنهم؛ فكتبت عنهم من وجهة نظرها، وهي وجهة نظر فيها من التحامل أكثر مما فيها من الصدق والموضوعية.

ليست مهمتنا في هذه المقدمة محاولة الكشف عن معالم الحضارة الفينيقية بالشرق، ذلك أن مقدمة قصيرة ليس في مقدورها تحقيق ذلك.

كان الفينيقيون تجاراً قبل أن يكونوا محاربين، وكانت تجارتهم في مداها البعيد طريقاً لنشر ثقافتهم ، ولأنهم على هذا النحو، كان عليهم أن ينتظروا سقوط الإمبراطوريات الكبرى أو ضعفها، ليبسطوا سلطانهم التجاري في أرجاء البحر الأبيض المتوسط (الخريطة ١)، وهو سلطان سينمو وسيتطور مع الأيام لينتقل إلى سلطان سياسي، سنرى ملامحه في الفصول القادمة.

## الثقافة

عند البحث في ثقافة شعبٍ ما، يدخل الباحث إلى ميدان يصبح فيه التنظير هو المنهج، لأنه يبحث في إطار عملية إنتاج الحضارة؛ ولذلك تصبح أسئلة من قبيل: ما محددات العقل الفينيقي؟ كيف كان يفكر صانع الحضارة الفينيقية؟ أسئلة محورية. فنحن لا نقصد هنا الثقافة بمدلولها الأنثروبولوجي،

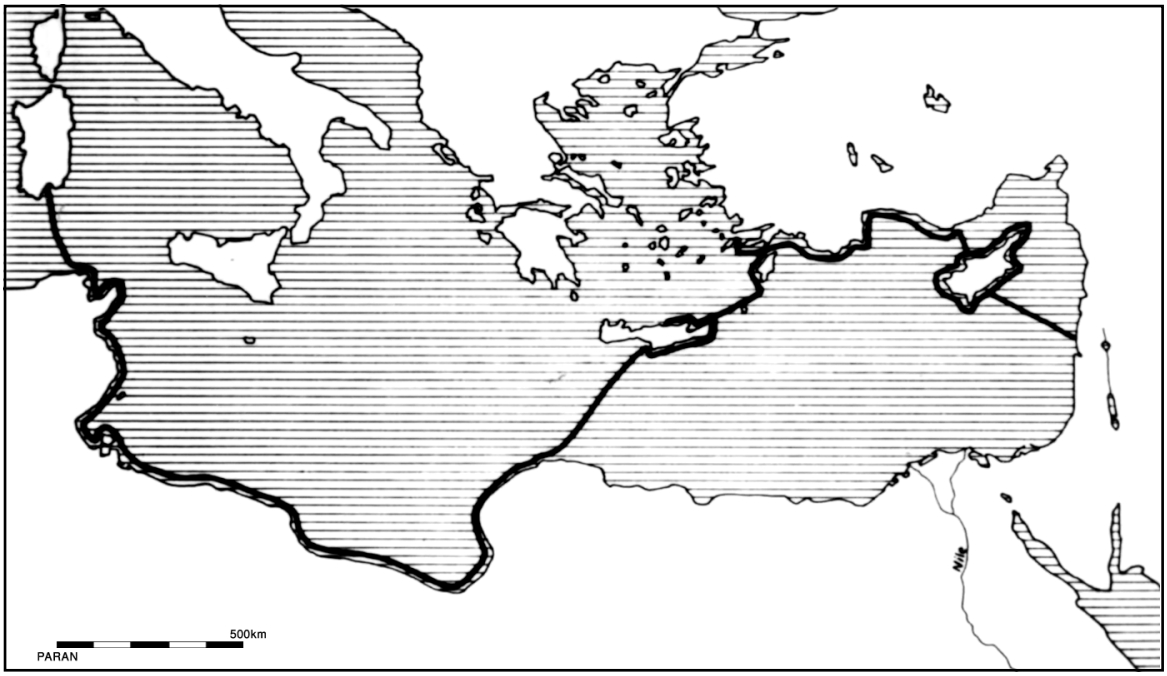


الخريطة ١: تبين التحرك الفينيقي قبل الطور الاستعماري. عن (Negbi 1992: 98).

ولكن الثقافة كسلوك وتوجّه.

ينبغي، أولاً، أن نتعرف على الخصوصيات التي ميّزت الفينيقيين عن غيرهم من الأمم المجاورة؛ صحيح أنها خصوصيات ولّدتها ظروف مساعدة، ومع أن ظروفاً مشابهة عاشتها السواحل الفلسطينية في مرحلة متزامنة، ولكن لم يستطع سكان هذه المنطقة تحقيق الخصوصيات نفسها.

هذه الملاحظة قد تبدو من الوهلة الأولى ساذجة، ذلك أن مضمونها يوحي بتسليم مطلق بفرضية تقول إن العوامل الاجتماعية، والاقتصادية، هي المحددة حتماً لأي مسار تاريخي؛ ولكن أليس لعناصر الوعي الاجتماعي والدين والفنون والقوانين دور في تحديد هذا المسار...؟! إن الموروث الثقافي الفينيقي ليس وليد البيئة المحلية فقط، ولكنه نتاج لعوامل ومؤثرات خارجية أيضاً. وقد سبقت الإشارة إلى أن السواحل السورية /اللبنانية، تعرضت لموجة من غزوات الإيجيين أو شعوب البحر، مع مستهل القرن الحادي عشر ق.م، فلا بد إذن من أخذ المؤثرات الخارجية، أيضاً، بعين الاعتبار.

تصادفنا في كثير من النصوص المصرية، إشارات حول تجار قادمين من أرض كنعان. ولعل أقدم هذه النصوص وثائق ترجع إلى عهد الدولة القديمة، جاء الحديث فيها عن تجار كنعانيين قادمين من بيبلوس (Byblos) (: Harden 1962 157)، وربما كان من الصحيح القول: إن النزوع نحو التجارة لدى الفينيقيين، له ما يقابله عند أسلافهم الكنعانيين. ولكن ماذا حول هذا المفهوم العام، الذي أفضنا في الحديث حوله ولم نقتحم مجاله؟

يبدو الجواب على هذا السؤال صعباً، ذلك أن ثقافة الفينيقيين كما الثقافات الأخرى، ليست للتحديد ولكنها للقراءة، وسنستعين في تحقيق هذه الغاية بمصادر خلّفها لنا العالم القديم، وفي هذه المصادر سنرى أراءً مختلفة حول الفينيقيين.

## النزعة التوسعية

عند الحديث عن هذه النزعة، ندخل خضمّاً خطيراً من التاريخ الفينيقي البونيقي. لقد مهدت الظروف التي عاشها الفينيقيون في الشرق، وتلك التي عاشها الشرق الأدنى القديم بأسره، مع بداية العصر الحديدي لنشأة هذه النزعة. وإذا كان عامل المنافسة مع التلامذة اليونانيين، قد أذكى تلك النزعة لدى الفينيقيين، فإن التطورات التي سار عليها التوسع

الفينيقي -البونيقي-، كانت من الخطورة بحيث أشعلت نار الحرب غير مرة، مع اليونان ومع سراقوزه (Syracuse) ومع الرومان. وكانت قرطاجة، في هذه الحروب، تنتصر مرات وتنهزم مرات أخرى؛ غير أن سنة ٣٩٨ ق.م، كانت منعطفاً حاسماً في تاريخ تلك الحروب، إذ في تلك السنة لقيت قرطاجة هزيمة فادحة على يد ديونيزوس، حاكم سراقوزة. كان الصراع بين قرطاجة وبعض ممالك المدن اليونانية قوياً، لبسط النفوذ على جزر متوسطية، تأتي صقلية على رأسها. وعلى حين أن نتائج هذا الصراع لم تكن في مجملها حاسمة، أتت الحروب مع الرومان، أو ما يُعرف تاريخياً باسم الحروب البونية (Punic Wars) كي تضع مساراً آخر للتاريخ الفينيقي بشمالي أفريقيا؛ مساراً تحددت معه نهاية الكيان السياسي لقرطاجة البونيقية. لقد كان من المفترض أن تستمر تلك الحروب قرناً من الزمن أو أكثر، أولاً: لطول نَفَس الخصمين، وثانياً: للعداء التاريخي الذي كان مستفحلاً بينهما. صحيح أن الأتروسكيين، أسلاف الرومان، كانوا في تحالف مع قرطاجة بالأمس، ولكن المستجدات اليوم هي غير تلك التي عرفها الأمس. لقد برزت قرطاجة وروما كقوتين متصاعدتين في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، فكان على إحداهما أن تلغي وجود الأخرى بأي وسيلة. كان المسار التاريخي، إذن، في غير مصلحة قرطاجة، بل ضدها وضد آمال قائدها المشهور هانيبال (Hannibal)، ذلك القائد القرطاجي العظيم، الذي حاول غزو روما في عقر دارها، والقضاء على واحدة من أعظم إمبراطوريات التاريخ.

## الفينيقيون شمالي إفريقيا

الأسطورة والتاريخ: يطرح تاريخ التوسع الفينيقي مشكلة من حيث تحديد بداياته الأولى، لذلك ظل السؤال المطروح دائماً هو: ما المستعمرة الفينيقية الأقدم؟ وإلى أي فترة يرجع تاريخها؟

للإجابة عن هذا السؤال، يتفق معظم الباحثين - استناداً إلى مصادر كلاسيكية - على أن الحركة التوسعية الفينيقية سابقة زمنياً للمد الاستعماري اليوناني، ويمكن إرجاع بداياتها الأولى إلى نهاية القرن الثاني عشر ق.م. أما إذا أخذنا رواية بليني بعين الاعتبار، فإن استيطان ليكسوس (Lixus) على الساحل الأطلسي المغربي من طرف الفينيقيين، سيكون أبكر بكثير مما نعتقد (Moscati 1970: 94)، بل إن ديودوروس الصقلي يذهب إلى أن استيطان الشمال الإفريقي من طرف الفينيقيين، كان قبل استيطان قادس جنوبي شبه الجزيرة الأيبيرية.

يطرح اختلاف هذه الروايات وتناقضها فعلاً، إشكالية على مستوى التأريخ لوصول الفينيقيين إلى شمال إفريقيا، ولأولى مستعمراتهم في هذه المنطقة (الخريطة ٢)، أما إذا استعرضنا أسطورة بناء قرطاجة[٢]، فإن الخَطْبَ سيكون أعظم:

*"لم يلبث مركز صور أن تهدد، بسبب إنشاء مدينة قرطاج على الجانب الغربي من المتوسط، وهكذا ففي القرن التاسع ق.م، فرت من صور الأميرة ديدون (Didon) أخت بيكماليون (Pygmaleon)، بعد وفاة زوجها سيشي (Sicheé)[٣]، ونزلت بالساحل الشرقي لبلاد المغرب. وهنا كان عليها أن تفاوض أصحاب البلاد ]...[لقد سألت الأميرة ديدون الرئيس البربري عما إذا كان يقبل أن يبيعها قطعة أرض صغيرة مقابل ثمن باهظ، فسألها عن المساحة، فأكدت له أنها لا تعدو مقياس جلد عجل! وهنا قبل الرئيس ، وتقدم أحد رفاق ديدون فأخذ يقدد الجلد سيوراً دقيقة جداً بحيث كونت في الأخير آلاف الأمتار. وهناك أحاطت بها قطعة من الأرض كانت ذات مساحة كبيرة حيث ستقوم قلعة تحت اسم (Byrsa) ..."* (التازي ١٩٨٧: ١٠٣).

ربما احتوت هذه الرواية على شيء من الصحة وإن كان السّياق مختلفاً، أو على الأقل مبالغاً فيه، ولكن من الموضوعي أن نراهن على صحة الرواية من خلال مدلول كلمة (Byrsa) في اللغة اليونانية، وهي كلمة تعني جلد العجل (Ox-hide). ولا نظن أن هذا المعنى كان مجرد محاولة تفسيرية (Etymological) لأصل كلمة (Moscati) :1970 (Byrsa 115).

## قرطاجة والشمال الإفريقي

بخصوص موقع قرطاجة وكيف كانت عليه الحال في البداية، حسب إفادة المؤرخ اليوناني طيماووس (Timaeus) الذي عاش بين القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، تكون

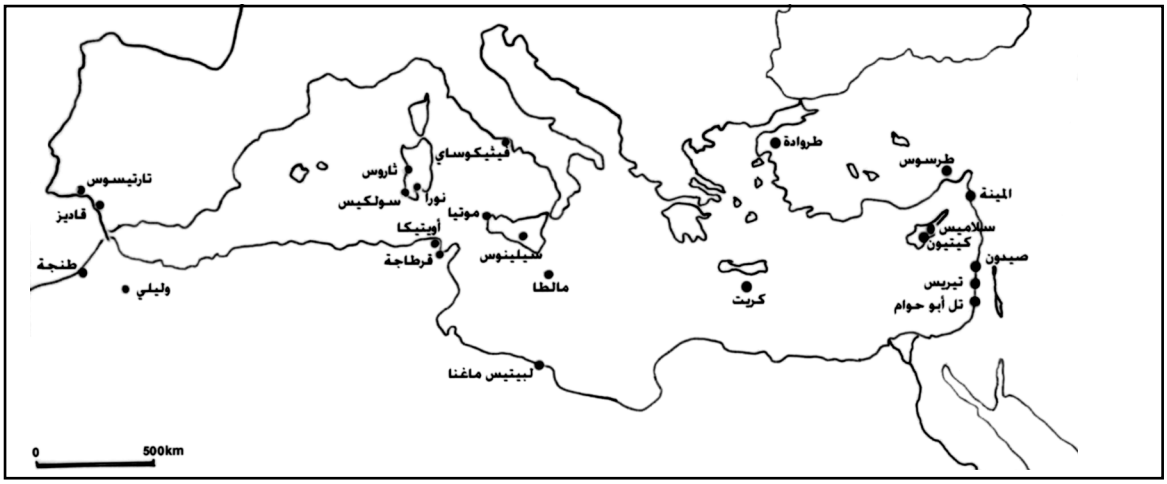


الخريطة ٢: توضح أهم مواقع العالم الفينيقي. (بتصرف عن : (Negbi 1992: 95).

قرطاجة قد بنيت في حوالي سنة٨١٣/٨١٤ قبل الميلاد (Jodin 1978: 65). وقد كان الصوريون بالتحديد يبحرون إلى منطقة قرطاجة، بسبب موقعها الإستراتيجي والجغرافي، حيث كان يتوافر نشاط بحري وزراعي، وكانت قرطاجة قد اكتسبت طابع المدينة المنظمة التي كانت تشرف عليها طبقة أُرستقراطية وكانت لها استقلالية منذ البداية (G.-C Picard 1991: 387).

أما عن المعلومات التي تزودنا بها بعض النصوص الكلاسيكية، من جانب، والتنقيبات الأثرية، من جانب آخر، نجد في أحد النصوص ما ذكره بوليبيوس حوالي (٢٠٠- ١١٨) قبل الميلاد، من أن قرطاجة تقع على خليج، أو شبه جزيرة محاطة بالبحر (Polybius 1979: 197). ولا تتناقض هذه المعلومات مع تلك التي قدمتها عبر قرن من الزمان، مجموعة من التنقيبات الأثرية التي تمت في الموقع، وحُدِّدت موقع قرطاجة بين سبخة الريانة شمالا وتونس جنوبا (Bondi 1988: 259).

وقد حدَّدت البعثة الفرنسية موقع أكروبوليس بيرصا في قرطاجة، ويبدو أن العمائر، التي تعود إلى الفترة الرومانية، والمقامة فوق قرطاجة، أسهمت في عدم وضوح بعض المواقع البونيقية (Debregh 1988: 94)، خاصة أن الرومان استخدموا الكثير من حجارة المباني التي تعود للفترة البونيقية. كما استخدمت المسلات والأنصاب البونيقية في بناء بعض الجدران (Cintas 1976: 216-219). ويرجح بيكارد أن من المستحيل كتابة تاريخ قرطاجة قبل معركة حيميرا (٤٨٠) قبل الميلاد (G.-C. Picard 1991: 386). وتبقى استنتاجات سنطاس (Cintas) مهمة، وذلك لخبرته الطويلة في العمل في منطقة قرطاجة. ونحن ننتظر معلومات أخرى ستنشرها البعثة الأمريكية عن الموقع قريبا. وقد واجهت العديد من الدارسين، الذين نقّبوا في المواقع التي تعود للفترة البونيقية، وخاصة في قرطاجة، مصاعب عديدة كان لها تأثير على النتائج التي توصلوا إليها، خاصة فيما يتعلق بتأثير العوامل الطبيعية في هذه المواقع، أو التأثيرات البشرية، وخاصة عملية تحديد الطبقات الأثرية (C.Picard 1990: 77). أما فيما يتعلق بالمصادر الكلاسيكية، أيضاً، فقد قدَّم (Cintas) عرضا مهما للمصادر التي تحدثت عن تاريخ بناء قرطاجة (Cintas 197 6: 164 -242).

لم ينتشر الفينيقيون في منطقة بعينها، كما استطاعوا ذلك في الحوض الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط. إن الظروف التاريخية التي احتوت هذه الحركة التوسعية ليس من الصعب تحديدها، قطعاً لم يكن سقوط الإمبراطوريات الكبرى أو ضعفها عند نهاية الألف الثانية ق.م هو السبب الوحيد، بقدر ما كانت هناك أسباب أخرى، تمثلت بالأساس في الوضع السياسي الذي آل إليه أمر الفينيقيين في الشرق (Moscati 1970: 94). صحيح أن حركة التوسع الفينيقية سبقت حدوث أمر من هذا القبيل، ولكنها نشطت مع ازدياد

الضغط على فينيقيا.

لا شك أن الفينيقيين قبل أن يدخلوا طور تاريخهم التوسعي، كانوا قد مهّدوا لهذا الطور بنشاط تجاري متميز. والواقع أن حضور هذا الشعب على مستوى أقاليم البحر الأبيض المتوسط يعد حضوراً مبكراً، فقد عُثر في جزيرة قبرص- ( Bamboula hill) وهو موقع في كيتيون (Kition)، على بقايا مستوطنة صنفها المنقب ميرس (Myres) على أنها مستوطنة فينيقية، ترجع إلى الفترة الممتدة بين عام ١٠٠٠- ٧٥٠ ق.م (Harden 1962: 58). إضافة إلى هذا المعطى الأثري، هناك مؤشرات أخرى تدل على حضور فينيقي قوي، على الأقل في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، تأتي على رأسها معطيات من الفخار الفينيقي الأحمر المصقول (Red burnished Phoenician Pottery)، عُثر عليها في مواقع من جنوبي فلسطين، في بيت بيلت والرقيش (Beth pellet & er-Regeish)، بل وحتى في مصر نفسها؛ فلم يقتصر الاستيطان الفينيقي على منطقة الدلتا، إذ امتد ليشمل ممفيس ذاتها حيث يحدثنا هيرودوت عن مدينة تسمى بالمعسكر الصوري (Tyrian Camp)، احتوت على معبد للآلهة عشتارت، إضافة إلى ما عُثر عليه من كسر فخارية حمراء مصقولة من الدلتا (في موقع الرطبة نموذجاً)، يرجّح أنها فينيقية (Harden 1962: 59).

غير أن كل هذه الدلالات لا تؤكد أن الفينيقيين قد أنشأوا في هذه المناطق - كما هو الأمر شمالي إفريقيا - مستعمرات، ولا نستطيع وصف هذا الحضور القوي إلا على أساس أنه حضور تجاري بحت.

ولكن كيف تحوّل هذا الحضور إلى حركة توسعية في الشمال الإفريقي؟ يبدو الجواب على هذا السؤال صعباً من الوهلة الأولى، ذلك أن حركة التوسع الفينيقي فيها من الفجوات ما يجعل التأريخ لها عملية محفوفة بالمخاطر. إنها عملية مرتبطة من جهة بروايات كلاسيكية، ومن جهة أخرى بمعطيات أثرية؛ ولأن الاختلاف كبير بين ما تقوله تلك الروايات، وبين ما تقدمه الكشوفات الأثرية، فإن إعادة النظر في تاريخ حركة التوسع الفينيقي تبدو ضرورية إلى أبعد الحدود.

وعلى العموم، لا بد من التمييز بين فترتين مهمتين في تاريخ التوسع الفينيقي، الأولى: كانت تميزت بطابعها التجاري البحت، أما الثانية فهي التي يجب تسميتها حقاً، بفترة الاستيطان الفينيقي لبعض السواحل والجزر المتوسطية. والواقع أن المؤرخين الكلاسيكيين لم يكن بمقدورهم الفصل بين الفترتين، ولذا فإن بعض التواريخ التي وضعوها لبناء بعض المستعمرات الفينيقية كان مبالغاً فيها.

بداهةً، نحن هنا لا نقصد الفصل الجامد بين الفترتين، فالفينيقيون لم يتركوا التجارة ليصبحوا مستعمرين أو هواة توسع، ولكن كل ما في الأمر هو الأوضاع الجديدة التي حتمت عليهم تكوين كيان سياسي لهم، باستطاعته الوقوف أمام اليونان، ثم من بعد أمام الرومان، مع إبقائهم على التجارة كنشاط رئيسي في اقتصادهم.

كان الفينيقيون في منظور اليونان رجالاً من طينة أخرى، صحيح أن احتكاكاً كبيراً وقع بين الشعبين، وصحيح كذلك أن اليونان تتلمذوا على يد البحارة السوريين، وعنهم أخذوا فنون التجارة، ولكن حتى هذه المعطيات لم تكن كافية لتجعل نظرة أولئك (لأبناء كنعان) أقل تمادياً في الخيال، وأكثر موضوعية وبعداً عن التصور الأسطوري.

لا شك أن حركة التوسع الفينيقي ارتبطت من حيث بداياتها، ببناء قرطاج التي كانت مركز انطلاق الحركة (الخريطة ٣)، أي في حدود القرن السابع ق.م. إن دراسة هذه الحركة من حيث تطوراتها التاريخية يتطلب الوقوف عند أوضاع الشمال الإفريقي خلال فترة ما قبل مجيء الفينيقيين. غير أنه يبدو من الصعب تحقيق هذا المشروع في ظل الغموض الذي يحيط بتاريخ المنطقة خلال تلك الفترة. ومع ذلك نستطيع القول أن اللغة البربرية (أي لغة البربر سكان المغرب الأصليين) بلهجاتها المختلفة، كانت تشكل وحدة حضارية، تجمع بين أقطار الشمال الإفريقي. وقد عرفت هذه المنطقة أنظمة سياسية واجتماعية، شكلت فيها القبيلة المرجعية العليا.

"أما فيما يتعلق بالثقافة البربرية، فقد تم الإقلاع شيئاً فشيئاً عن عادة وضع جميع الاكتشافات التي يدمجها مؤرخو

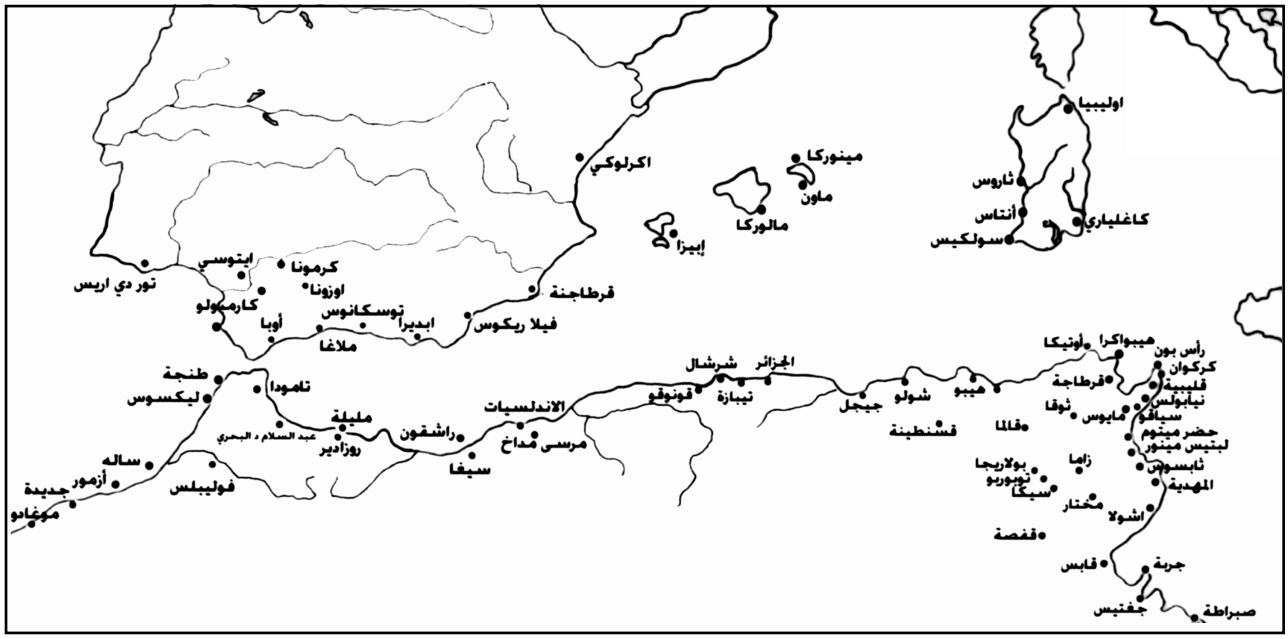


الخريطة ٣: تبين حركة التوسع الفينيقي في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط. (بتصرف عن: (Fantar 1988: 165).

ما قبل التاريخ، تحت اسم الثورة النيوليثيكية لحساب الفينيقيين، كان كزل (Gsell) يكتب: "إن السكان الأصليين لهذا الصقع لم ينتظروا قدوم البحارة السوريين لممارسة التدجين والزراعة" ولكنه يضيف، وهذا هو السؤال الذي لم ينفك مؤرخو عصور ما قبل التاريخ يطرحونه على أنفسهم " هل كان مرد بعض خطواتهم نحو التقدم إلى مبادرتهم الذكية؟ إننا نجهل ذلك " ]...[أكد (Gsell) أن القمح وبعض أصناف الأشجار والحصان كلها دخلت من المشرق وفي تاريخ قريب العهد نسبياً (الحصان في غضون الألف الثانية)، وهو يؤكد كذلك، بتحفظ أكثر أن العصر الحجري الأخير استمر حتى مطلع الألف الأولى، إذ انتقل المغرب مباشرة إلى عصر الحديد، من دون أن يكون قد عرف النحاس ولا البرونز، وهي فكرة تصبح فيما بعد مشتركة تنتقل من كتاب إلى آخر. إلا أن اكتشاف مناجم النحاس والقصدير، الذي يهدم إحدى حجج (Gsell)، ووجود العجلات، المعروف قبل قدوم الفينيقيين، بزمن طويل والتي يقتضي بناؤها استخدام المعادن، وأخيراً اكتشاف النقوش الصخرية بالأطلس الأعلى قد أنزل ضربة قاسية بقضية القفز على عصر النحاس والبرونز" (العروي ١٩٧٧ :٢٠-٢١).

إن احتكاك البربر بالقادمين الجدد كان في بدايته تجارياً بحتاً. والواقع أن هذه العلاقة كانت من حيث محدوديتها في التأثير والتأثر، صورة لطبع سكان المغرب الأقدمين." كانت التجارة التي نشأت بين الفينيقيين والليبيين تجارة خرساء، إذ حسب روايات هيرودوت، التي لا مناص من اعتمادها ، كان القرطاجيون يأتون مكاناً في ليبيا حيث يعيش قوم خلف أعمدة هرقل، ويفرغون بضائعهم، وبعد وضعها على الشاطئ، يذهبون إلى سفنهم ويوقدون ناراً ذات دخان، فيرى الأهالي الدخان، وعند مجيئهم يضعون إلى الأرض ذهباً ثمناً للبضائع وينسحبون بعيداً عنها، ثم يهبط القرطاجيون إلى البحر ويتأملون الذهب، فإن بدا لهم ثمناً عادلاً أخذوه ومضوا في سبيلهم، وإن لم يكن كذلك ذهبوا ثانية إلى سفنهم فينظرون، ويعود الأهالي ليزيدوا الذهب حتى يرضى رجال السفينة، وفي هذه العملية لا يخدع أي فريق منهما الآخر، فإن القرطاجيين لا يأخذون الذهب حتى تعادل قيمته سلعتهم كما أن الأهالي لا يمسون البضائع حتى يأخذ رجال السفينة ذهبهم") أبو حامد ١٩٦٨: ١٣١ ، وكذلك التازي ١٩٨٧: ١٠٣).

هكذا بدأت علاقة الفينيقيين بسكان الشمال الإفريقي. وإذا كانت الرواية التي أوردها أصلاً هيرودوت، قد تطرقت إلى

قضية جوهرية، وهي التجارة عن طريق المقايضة، فإن البحث في تفاصيل تلك العلاقة يظل مسألة مهمة وضرورية.

كان اهتمام الفينيقيين كبيراً بسواحل الشمال الإفريقي، إلى الحد الذي كانت فيه الحركات الاستكشافية الفينيقية لهذه السواحل دائمة النشاط، وإذا كان نزاع البونيقيين (The Punics)[٤]، مع اليونان على بعض الجزر المتوسطية، وعلى رأسها جزيرة صقلية، قد حال دون البحارة السوريين والتوسع شمالاً، فإن المجال ظل مفتوحاً لهم للتوسع باتجاه الغرب، أي باتجاه الشمال الإفريقي. وكان على البونيقيين لتحقيق هذا المشروع القيام برحلات لسواحل هذه المنطقة. وفي هذا الإطار تأتي رحلة القائد القرطاجي حنون أو حنو (Hanno)، التي انطلقت حوالي عام ٤٢٥ ق.م تقريباً من قرطاجة، عبر أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق؟) وحتى خليج غينيا. وتفاصيل هذه الرحلة معروفة جيداً، من خلال ترجمة يونانية للقصة، كما وردت في مسلة بمعبد بعل حمون، وهي قصة مثيرة بالفعل، إذ توضح بصورة لا غبار عليها عبقرية البونيقيين وموهبتهم في حقل التجارة والاكتشافات الجغرافية[٥].

## المستعمرات في ضوء البحث الأثري

في دراسته المفصّلة الصادرة في نشرة الآثار المغربية تحت عنوان: Carthage et le Maroc Phénicien (Travaux et Publications) يقول جودان (Jodin): "بعد ذلك التاريخ (حوالي عام ١١٠٠ ق.م) والتوسّع الفينيقي يبدأ معكوساً من الشرق إلى الغرب، غير أن أوتيكا (Utica) كانت قد بنيت ثم تلتها بعد ذلك قرطاج خلال سنة ٨١٤/٨١٣ ق.م- حسب طيماوس-... إن تاريخ ليكسوس إلى فترة أبكر من تأريخ قرطاجة، هو حكم يبدو منذ القديم، مبيناً على رؤية أسطورية كتب لها الشيوع. ولكن إذا كانت هذه التواريخ مبالغاً فيها، فإن هذا لا يمنع من تقصي صحة هذه الروايات. أمام هذا الوضع الغامض تبدو الحفريات الأثرية ضرورية إلى حد كبير..." (Jodin 1978: 65).

كان هذا هو السبب الرئيسي وراء نشوء علم الآثار البونيقية أواسط القرن الماضي، إذ في البداية كان الاهتمام منصباً على قرطاجة، وذلك لسببين: أولهما لكونهما معقل الحضارة البونيقية، وثانيهما لما أفردته لها المصادر الكلاسيكية من أخبار أسطورية. لذلك بدأت الحفريات الأثرية في هذا الموقع قبل بدئها بسنوات عديدة في المواقع البونيقية الأخرى. وقد شهدت سنة ١٨٥٧م كشف أول حفرية علمية برئاسة الأثري بولي (Beulé)، بعد ذلك كشف الأب ديلاتر (Dellatre) في السابع من نيسان عام ١٨٧٨م عن قبور بونيقية بالموقع . غير أن أهم نشاط أثري شهدته قرطاج، هو ذلك الذي قام به جوكلر (Gauckler) مع مستهل القرن الحالي، واستطاع من خلاله الكشف عن عدد كبير القبور، المنتشرة حول مرتفعات بورسا (Byrsa). أما بخصوص معبد في تانيت (Tanit) إلى الجنوب من المدينة، فإن التنقيبات بدأت فيه سنة ١٩٢٠م. وحتى الآن لا تزال الحفريات تجري في القطر التونسي، تحت إشراف فعاليات محلية وأجنبية في مواقع بونيقية تأتي قرطاج، وأوتيكا، وسوسة، ورأس بون (دار الصافي (كركوان) على رأسها (Fantar 1988: 180).

وأما المغرب الأطلسي، فإن إسهامات علم الآثار قطعت أشواطاً بعيدة في نفض الغبار عن معالم الحضارة البونيقية بالمنطقة. عاشت علوم الآثار بالمغرب خلال الحقبة الاستعمارية أزهى فتراتها، إذ تعد الإنجازات التي حُققت قبل الحرب العالمية الثانية في مضمار آثار المغرب البونيقي أعظم الإنجازات على الإطلاق، فمن خلالها كُشف عن ليكسوس، وطنجة ، ومليلة، وطيت، وقرب الجديدة، وأزمور، أما موقع موكادور (Mogador) قرب الصويرة فقد كُشف عنه فيما بعد.

في بعض المصادر الكلاسيكية رواية، ينسبها سترابو إلى إراتوشنيس (Eratosthenes)، تقول إن الفينيقيين أسسوا ثلاثمائة مستعمرة على طول الساحل الأطلسي المغربي (Fantar 1988: 181).

وقد يبدو هذا العدد مبالغاً فيه، ولكن رواية من هذا القبيل كانت كفيلة برفع حجم الأنشطة الأثرية المتتبعة لأثار الغرب البونيقي عقداً بعد الآخر. وربما كان من الضروري أن نفرد جانباً من هذا البحث، للحديث عن إحدى أبرز الدوريات التي تخصصت في هذا الحقل، وهي حولية الآثار البونيقية (Manuel d'Archéologie Punique)، التي احتلت مكانة خاصة بين مجموعة الكتب والدوريات المهتمة بالآثار البونيقية.

صدرت هذه الحولية بجزئيها الأول والثاني سنة ١٩٧٠ و ١٩٧٦م، تحت إشراف سنتاس (Cintas)، الذي أسهمت تنقيباته في نفض الغبار عن جزء من التاريخ الفينيقي بشمالي إفريقيا، ليبين لنا بشكل واضح المهمة التي أرادت الحولية أداءها؛ ولكن هل احتلت أثار المغرب الفينيقو/ بونيقية حيّزاً من هذه المنشورات؟

في المجلد الأول الذي احتوى على أكثر من ٥٠٠ صفحة، قسّم الكاتب مادة دراسته إلى خمسين فصلا، تمثل خمسين موضوعاً مختلفاً، كان الاهتمام منصباً على تاريخ قرطاج. وما ينبغي ملاحظته حول هذا الجزء، هو الخلو التام من استحضار أية شواهد أثرية، لذلك أتى المجلد الأولى في مضامينه وأطروحاته، بعيداً عن أي محتوى أثري، خلافاً للمجلد الثاني الذي كان فيه التركيز قوياً على المواقع البونيقية. وكان نصيب المغرب من هذه الدراسة ثلاثة مواقع هي ليكسوس، ومليلة، وطنجة (Jodin 1978: 67).

إن الإنجازات التي حققتها الأبحاث الأثرية، في ميدان أثار المغرب البونيقي لها أهميتها، إذ استطاعت إعادة تدوين التاريخ الفينيقي بشمال إفريقيا، كما هو لا كما صورته بعض المصادر الكلاسيكية. صحيح أن ما ورد في تلك المصادر كان حافزاً أصلياً لنشوء علم البونيقيات، ولكن الإنجازات التي حققها هذا العلم كانت موضوعية، بحيث استقلت نسبياً عن سياق الروايات الكلاسيكية.

أما فيما يتعلق بالفخار، فلم تُنشر أي مدونة خاصة بالفخار البونيقي، خاصة الفترة الكلاسيكية ومنها المتأخرة، تراعي التسلسل الطبقي لتأكيد دقة التأريخ (Stager 1978: 169). وقد تواصلت التنقيبات الأثرية منذ فترة في عدة مواقع، بالقرب من حوض البحر المتوسط . وتبقى دراسة هاردن (Harden 1937) للفخار، ذات أهمية بالغة على الرغم من أن انجازها كان قبل مدة طويلة، نوعاً ما؛ فقد قدمت الدراسة معلومات متكاملة عن هذا الفخار، خاصة ما يتعلق بفخار الجرار الجنائزية. كما أن أبحاثاً أخرى حول الفخار البونيقي أنجزت في هذا المضمار (Cintas 1950; 1970; Culican. 1961; 1982; Bisi 1970).

تميز هذا الفخار خاصة الجرار ، بأن عجينتها كانت ناعمة حمراء، تغطيها طبقة بيضاء مصقولة، وتزينها رسومات هندسية غلب عليها اللون الأسود والأحمر. كما أن بعضاً من هذا الفخار كانت عجينة خشنة ، ولونها مائل للاحمرار الفاتح، وجرى تغطيتها بدهان أصفر (Harden 1937: 86). كما أغلقت فتحات هذه الجرار الفخارية، بغطاء أو بزبادي مصنوعة من الطين غير المشوي (Stager &Wolff: 1984: 36). ولا بد من الإشارة هنا إلى وجود مشكلة تواجه الدارس لفخاريات قرطاجة بشكل خاص، تكمن في صعوبة إيجاد علاقة ما بين الفخار الذي ظهر في فينيقيا، أو على طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط (Bisi 1987: 40-41). وأهم النماذج من هذا الفخار الجرار عديمة المقابض (Handless). ويذكر سنطاس إن هذه الجرار صنعت على غرار أواني الألباستر المصرية (Cintas 1950: 271).

وقد سميت هذه الجرار "الأواني العوسجية، بسبب شكلها الذي يتكون من عنق طويل (Cintas 1970 330-335)، مع ضرورة الإشارة إلى أن التمييز يصعب بين الأواني الفخارية المستوردة من قرطاجة، مثلا، وبين تلك التي تم تصنيعها كليا، مثالا على ذلك فخار طنجة (العزيفي ١٩٩١:١٢). أما الجرار أحادية المقبض الذي وجد، عادة، في مناطق فينيقية وبونيقية متعددة، كالتي وجدت في ثاروس وتعود للقرن السابع-الخامس قبل الميلاد (Acquaro1989: 15-19). وفي سولشيس القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد (Aubet1993: 203-207).

## مواقع من المغرب البونيقي

إذا كانت رواية سترابو قد أخبرتنا، أن الفينيقيين أسسوا ثلاثمائة مستعمرة على طول الساحل الأطلسي المغربي، فإن ما تم الكشف عنه من هذه المواقع - إن كانت الرواية صحيحة - يعد على رؤوس الأصابع (الخريطة ٤) ؛ "ففي المغرب نجد بالترتيب: روسادير مليلة، بمقابرها التي ترجع إلى القرن الرابع ق.م، سيدي عبد السلام البحري بسويات من القرن الخامس ، تامودا (Tamuda) مستوطنة متأخرة لكنها كبيرة من القرن الثاني ق .م، طنجة (Tingis)، حيث تم العثور على جواهر

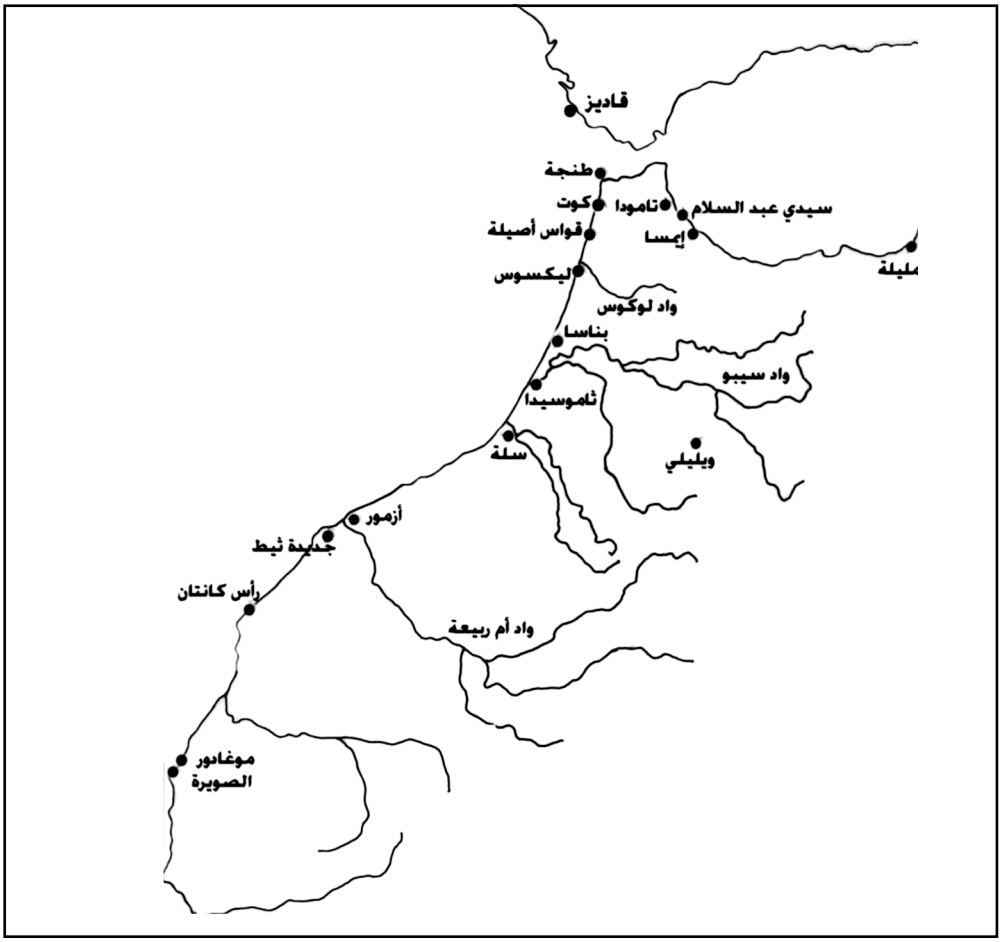


الخريطة ٤: توضح أهم مواقع المغرب البونيقي، بتصرف عن: (Fantar 1988 : 167).

وخزفيات في مقابر أعطت الانطباع بأن المدينة استُوطنت في حدود القرن الثامن ق.م. وعلى الساحل الأطلسي المغربي، هناك ليكسوس (العرائش) وسلا بخزفياتها، التي ترجع إلى فترة ما قبل القرن السابع ق.م، وأخيراً موكادور (Mogador) حيث عُثر على نقوش ترجع إلى الفترة التاريخية نفسها تقريباً " (Fantar 1988: 181).

وعند الحديث عن مواقع من المغرب البونيقي، فإن الأمر يتعلق بفترة من تاريخ المغرب، لم تنل بعد حقها من الدراسة والتمحيص، على الرغم من بعض الاكتشافات الأثرية المهمة التي ألقت الضوء، على الحضور الفينيقي بالمنطقة وتاريخه. ونحن في هذا الجزء من البحث سنركز على موقعين مهمين في قائمة المواقع البونيقية بالمغرب، هما: ليكسوس وطنجة.

## ليكسوس

يبدو أن الفينيقيين وصلوا إلى أراض (LBM) أو (FRM)، التي عرفها الرومان باسم (AFRI) أو (IFRI) مع نهاية الألف الثانية ق.م. وفي نص لبليني يرد أن ليكسوس بالمغرب الأطلسي أسست حوالي عام ١١٥٥ ق.م. حسب بعض المصادر البونيقية، التي عُثر عليها بالموقع. وكان لهذه المدينة اسمان، الأول (MQMSMS) وهي عبارة فينيقية تعني "مقام شمس"، الإله شمس. أما الاسم الثاني، الذي عثر على صيغة له على قطعة نقدية من ليكسوس، فمن المحتمل جداً أن يكون قد حُوِّر حسب قواعد اللغة البونيقية الحديثة (Neo-Punic)، ليدل بعد ذلك على مدينة ظل اسمها يكتب هكذا (LXS)، ثم ترجم بعد ذلك في النقوش ألاتينية إلى (LIX) أو (LIXS). ونجد في كتابات بليني الكبير (٢٣-٧٩م) (Historia Naturralis) مجموعة من الروايات حول

قصة بناء المدينة، ثم حول المعبد الذي ينسب إلى مؤسسيها. وهو يورد فضلاً عن ذلك أخباراً عن مدن أخرى مثل طنجة، روسادير (Rusadir)، روسيبيز (Rusibis)، وزيلي (Zili) التي ذكرها كذلك بطليموس و سترابو ضمن إطار الطريق الأنطونيني[٦] (Fantar 1988: 166).

من الصعب جداً وضع تاريخ محدد لبناء المدينة، وحتى إذا أخذنا بعين الاعتبار رواية بليني، التي تقول بأن ليكسوس أسست حوالي ١١٥٥ق.م، فإن هذه الرواية التاريخية تستحق الدراسة وإعادة النظر.

إن محاولة تحديد تاريخ بناء المدينة تبدو ممكنة في ضوء منهج قائم على المقارنة بين المعطيات الأثرية للمدن الفينيقية، وبين بعض الروايات الكلاسيكية، وإحدى روايات (Velleius Paterculus)، تخبرنا أن معبد هيراقليس بقادس، بني في تاريخ محدد هو عام ١١٠٠ ق.م. فإن رواية أخرى لبليني، تجعل من المفروض تقبل هذا التاريخ بتحفظ. كتب بليني في الجزء الرابع عشر من موسوعته في التاريخ الطبيعي: "لدينا مثال لشجرة الخباز (Mallow Tree) في موريتانيا[٧] عند مصب النهر، حيث تقع بلدة ليكسوس، في مكان قيل إنه كانت منطقة نمت فيها حدائق التفاح الذهبي (The Gardens of the Hesperidins)، على بعد مائتي خطوة من المحيط وأمام معبد هيراقليس، الذي يعتقد أنه أقدم من ذلك الذي بنى بقادس". وفي رواية (Paterculus) نجد أن تاريخ بناء معبد هرقليس بقادس هو ١١٠٠ ق.م، في حين يخبرنا بليني أن ليكسوس بنيت سنة ١١٠٠ ق.م، وأن معبد هراقليس بها هو أقدم من ذلك الذي بقادس. في ظل هذا الاختلاف بل والتناقض في التأريخ، لا يسعنا سوى القول مع فنطر: "... ربما كان من الوارد جداً أن يتقدم معبد هيراقليس – ملقارت (Heracles - Melgarth) زمنياً على ذلك الذي تم بناؤه في قادس" (Fantar 1988: 181).

إذا كانت هذه الروايات ترجع تاريخ الوجود الفينيقي بالمغرب، إلى حدود نهاية الألف الثانية ق.م، حين تأسست ليكسوس كما هو وارد ، فإن معظم المعطيات الأثرية البونيقية بل وأقدمها، لا ترجع إلى ما قبل القرن السابع ق.م. كما هو الأمر للقبر الذي عُثر عليه في رأس أخاقار (Cape Akhakar)، أو بعض البقايا الأثرية لموقع موكادور (Mogador).

## طنجة

ظلت الأسطورة الفينيقية، كما صورتها المصادر الكلاسيكية، حافزاً للأثريين على إعادة اكتشاف طنجة. وفي هذا الإطار، كُشف عن معطيات أثرية بونيقية في كل من رأس أخاقار وموكوغا (Mogoha es Srira). وفي هذين الموقعين دلالة قوية على الحضور الفينيقي – البونيقي في الجزء الجنوبي من مضيق جبل طارق، وإذا كان القبر الذي عُثر عليه سنة ١٩٣٣م، من طرف كولر (Koehler) في رأس أخاقار، يدخل ضمن إطار أقدم الشواهد الأثرية البونيقية بالمغرب الأطلسي، فإن وضع الاستيطان الفينيقي في هذه المنطقة، ضمن إطار تاريخي يصعب، أولاً: لغياب معطيات أثرية جازمة، وثانياً: للصمت المطبق الذي اتخذته المصادر الكلاسيكية حيال هذه القضية، إلا إذا استثنينا رواية لهيرودوت ورد فيها: "القرطاجيون كانوا يأتون مكاناً ما في ليبيا حيث يعيش قوم خلف أعمدة هرقل ؟..." (أبو حامد ١٩٦٨: ١٣١). أما إذا كان المقصود بأعمدة هرقل مضيق جبل طارق، فعند ذلك سيكون أخذ هذه الرواية بعين الاعتبار ذا معنى ما؛ ولكن ألا يمكن أن نقترح إطاراً تاريخياً لهذا الاستيطان، دون الاعتماد على مصدر معين ؟

إن تأملاً واحداً لخريطة المغرب كفيل بأن يخلصنا من هذه المتاهة، إذ نحن نعرف أن حركة التوسع الفينيقية، انطلقت من قرطاج باتجاه المغرب إلى مضيق جبل طارق، ثم توجهت جنوباً إلى سواحل المغرب الأطلسي، وشمالاً باتجاه السواحل الأطلسية لشبه الجزيرة الأيبيرية. وإذا كان موقع طنجة في أقصى الجنوب الغربي لمضيق جبل طارق، فإن من المحتمل جداً أن يكون الاستيطان الفينيقي بها مبكراً، بالمقارنة مع مواقع أخرى، من حيث بعدها الجغرافي استُوطنت لاحقا . بيد أن استنتاجاً من هذا القبيل يظل محض فرضية في ظل غياب أي قرائن مادية.

إن اكتشاف عدد من المقابر في مواقع أثرية، تدخل ضمن إطار طنجة الكبرى (رأس أخاقار) خصوصاً، ليشير إلى أن النشاط التجاري الفينيقي بالمنطقة كان في أوجه، وهو فضلاً

عن ذلك يعطي انطباعاً كبيراً بأن المنطقة كانت مستقرة محلياً، ومعتمدة بالدرجة الأولى في اقتصادها على الزراعة، إضافة إلى القنص والصيد . وقد عُثر في تلك المقابر، على شواهد تدل على نشاط تجاري قوي نشأ بين السكان المحليين وبين التجار الفينيقيين، القادمين من الشرق أو من الشمال، وبالتحديد من قادس، حيث تم العثور في هذه القبور على الأسلحة الحديدية، وحبوب القمح، وبذور الزيتون (Ponish 1967: 14,19).

وهناك موقع آخر ينبغي الإشارة له هو ترشيش (Tarshish). وقد اكتسب تلك الأهمية نظراً لورود ذكره في التوراة (حزقيال ٢٧)، غير أن مطابقة الموقع بتارتسوس (Tartessos)، جنوب غربي الجزيرة الأيبيرية يظل أمراً مجازفاً فيه، ما دامت هناك مدن عديدة حملت اسماً قريباً من هذا الاسم مثل طرسوس، في كيليكيا (Cilicia)، وثاروس (Tharros) في سردينيا (Negbi 1992 : 609).

اكتسبت النقوش التي اكتشفت بالمغرب، مكانة خاصة في علم البونيقيات منذ القرن الماضي، وهنا ينبغي الإشارة تحديداً إلى مقالة كتبها برجر (Berger) سنة ١٨٩٢م، حول نقش بونيقي من القرن الثاني ق.م اكتُشف بلكمسوس. غير أن ما نشره فيفريي (Février) سنة ١٩٦٦م عن مجموعة من النقوش البونيقية والبونيقية المحدثة التي اكتشفت بالمغرب، يظل أهم إنجاز تحقق في هذا المجال. ومن خلال هذه النقوش يتبين أن لغة الفينيقيين والقرطاجيين كانت واسعة الانتشار بالمغرب. والنصوص التي قرئت إلى الآن، تشير إلى قوة العلاقة التي نشأت بين الأهالي وبين البحارة السوريين، كما هو الأمر في النقوش التي وصلتنا من الساحل، خصوصاً من موقع موكادور، أو من الداخل، خصوصاً من موقع وليلي (Volubilis) (Fan-tar 1988: 181).

## معالم حضارة شرقية بالمغرب

### الدين

ألقت الحفريات التي أقيمت خلال العشرينات من القرن الحالي في أوغاريت، وبيبلوس، الضوء على جذور الديانة الكنعانية. ومما لا شك فيه "أن الأساطير التي تحتويها ألواح أوغاريت أقدم بكثير في أصلها (ما قبل القرن ١٤ ق.م). وهناك ألواح عديدة مكسورة والنص غير مؤكد، فهو يثير نقاطاً غامضة تقتضي الحذر عند استعماله، مع ذلك فالخطوط العامة للأساطير وافية بما يكفي لإعطاء عرض لها يعوّل عليه" (هووك ١٩٨٣ : ٦٥ ).

هذا الكشف المهم الذي حققه الفرنسي شيفر (Schaeffer) هو من الأهمية، بحيث فتح المجال واسعاً للتعرف عن قرب على بدايات الميثولوجيا الكنعانية.

ما الصلة بين الفكر الديني الفينيقي بالشرق وبين ذلك الذي نشأ بالغرب؟

إن هذه الصلة تبدو واضحة في الفنون الدينية البونيقية، سواء تلك التي جسّدتها المسلات النذرية، أو تماثيل الآلهة. لقد تمسك البونيقيون بالطقوس الدينية الفينيقية ذات الأصل الكنعاني، حتى وقت متأخر من تاريخهم. وما علينا هنا إلا استحضار بعض أسماء الآلهة البونيقية، التي هي في الأصل فينيقية أو كنعانية (ميادان ١٩٨١: ٦٢-٦٣).

إن معرفتنا بأسماء الآلهة البونيقية مستمدة أساساً من مصادر كلاسيكية، حيث نجد تشابهاً بين تلك الآلهة وبين آلهة يونانية؛ فبعل حمون يماثل (Chronos / Saturn) وتانيت بـ (Hera /Juno) وملقارت بهراقليس (Moscati 1970: 137).

ليس من شك في أن الفينيقيين أدخلوا ديانتهم إلى المنطقة، فضلاً عن نظامها، بما فيه من طقوس وأماكن عبادة (Van Bershem 1967: 75). ولكن خصوصيات هذه الديانة تولّدت في المنطقة مع عناصر محلية. هذه العناصر ربما تجلت في بعض الآلهة التي أصبحت تحمل أسماء جديدة مثل بعل حمون وتانيت (Tanit pene Baal)[٨]، الإلهان الزوجان اللذان شكلا رأس الآلهة الفينيقية /البونيقية (Harden 1962: 88). وكانت للإله بعل ح م ن أهمية كبيرة في الديانة البونيقية، وبالتحديد في مناطق تونس ونوميديا شرقي الجزائر (Gsell 1972: 295-296[1924]). أما فيما يتعلق بالعبادة وقصة ديدون وعملية تحديد انتحارها فانظر (Baurain and Bonnet 1992: 27-26).

### التجارة والتبادلات واللغة

ربما كان من الصحيح أن يُنعت الشعب الفينيقي بأنه شعب تاجر بطبعه. هذه الحقيقة التي نحاول في هذا البحث تبيان بعض مظاهرها، ليست سوى صورة عن عبقرية هذا الشعب العظيم. ولكن ما يهمنا هنا ليس هذه التجارة نفسها، بل العلاقات التجارية التي ربطت بين الفينيقيين، وبين سكان الشمال الإفريقي الأصليين، إذ في ضوء هذه العلاقات تتكشف خيوط من التاريخ ومن الحضارة، ما أحوجنا لمعرفتها.

لا شك، إذن، في أن النشاط التجاري الفينيقي بشمال إفريقيا، كان بمستوى طموح هذا الشعب العظيم، وربما كان من السهل إثبات صحة هذا الاستنتاج من خلال استحضار نموذج لأعظم رحلتين بحريتين عرفهما العالم القديم هما: رحلتي حنون وحملقو.

أما اللغة البونيقية، وتعد امتداداً للغة الفينيقية الأم، فقد ظلت لغة رئيسية بالشمال الإفريقي، حتى بعد سقوط قرطاجة واندثار الكيان السياسي البونيقي في المنطقة. هذه الحقيقة تؤكدها رواية لأحد أباء الكنيسة الغربية، وهو القديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م) (Augustine)، الجزائري المولد أو النوميدي نسبة إلى نوميديا في الجزائر. وتقول الرواية أنه عندما تسأل سكان الأرياف في إفريقية أو تتحدث معهم فعليك أن تنتظر منهم جواباً باللسان البونيقي (Harris 1936: 7) وكذلك ((22 : 1962 Harden).

إن هذه الاستمرارية لهي دليل واضح على التأثير الثقافي الحضاري العميق، الذي مارسه الفينيقيون على سكان الشمال الإفريقي، وهو تأثير لم ينحسر حال سقوط قرطاجة واندثار كيانها السياسي، بل استمر فاعلاً في الدين وفي المجتمع وفي الحياة؛ استمر لأنه لم يكن تأثيراً عابراً ولا بسيطاً، بل كان من الجدية والعمق بحيث أسهم بشكل كبير في بناء الخصوصية التاريخية لأقطار المغرب العربي، تلك الخصوصية التي تشكلت بداياتها الأولى مع قدوم البربر، ثم اغتنت مع مجيء الفينيقيين لتأخذ بعد ذلك صورتها النهائية مع الفتح العربي الإسلامي.

**أ.د. زيدون حمد المحيسن - كلية الآثار والأنثروبولوجيا - ص.ب ٤٦٣٨ - جامعة اليرموك- أربد / الأردن.**
E-mail : muheisenz@yahoo.fr

**د. مولاي محمد جانيف - جامعة باريس الأولى (السوربون)، باريس/فرنسا .**

### الهوامش

(١) يأتي على رأس هؤلاء الباحثين كل من: هاردن (Harden 1962:21)، ودونان (Dunand 1965:1141).

(٢) اسم قرطاجة أو قرطاج مركب من كلمتين، قرت ومعناها القرية أو المدينة، وحدشت ومعناها الجديدة، إذن قرطاج معناها المدينة الجديدة.

(٣) في مراجع أخرى نجد أن الأسماء مختلفة عن الأسماء الواردة في النص أعلاه، فمثلاً بدل اسم الأميرة ديدون نجد الاسم إليسا (Elissa) وبدل أسم الزوج سيشي نجد الاسم أكارباس (Acharbas)؛ ففي هذا الإطار قارن بين (Moscati 1970: 114)، وبين (التازي ١٩٨٧:١٠٣).

(٤) إن لفظ بونيقي هو تحريف للمصطلح فينيقي، وقد أطلقه الرومان بوجه خاص على الفينيقيين في قرطاجة، وقد يرد مصطلح بونيقي حديث (Neo-Punic) في المصادر الرومانية، ويراد به على الأخص اللهجة الفينيقية – القرطاجية، وهي لهجة ظلت مستعملة في جميع المدن الطرابلسية في العهود الرومانية". (أبو حامد ١٢٢: ١٩٦٨).

(٥) في نص القصة التي تروي تفاصيل هذه الرحلة يرد ما يلي "أخذنا معنا عدداً من المترجمين وسرنا نخترق الصحراء إلى الجنوب، وهكذا

سرنا بيومين، ثم عرجنا بالمسير ناحية الشرق وبعد مسيرة يومين آخرين وجدنا خليجاً دائرته نحو الميلين". للاطلاع على القصة انظر (المشرقي ١٩٦٩: ٧-٥٣)، وكذلك (Moscati: 1970: 182).

(٦) ربما نسبة إلى الإمبراطور الروماني أنطونيوس بيوس (Antoninus Pius) المتوفى سنة ١٦١م.

(٧) الاسم القديم للمغرب الشمالي (Le Maroc Septontrional)، وقد قسمت موريتانيا في عهد الرومان إلى ولايتين أو مقاطعتين إحداهما شرقية، وعرفت باسم القيصرية، والثانية عربية وعرفت باسم الطنجية.

(٨) ورد الاسم في النقوش البونيقية بمعنى تانيت وجه بعل (Tanit face of Baal)، وورد ذكرها خارج قرطاجة وفي مرحلة مبكرة نسبياً القرن التاسع ق.م. في زنجرلي (انظر (Yadin 1970:200).

## المراجع

### أولاً: المراجع العربية:


أبو حامد، محمود الصديق، ١٩٦٨، "من مظاهر الحضارة الفينيقية في طرابلس"، **فعاليات المؤتمر التاريخي**، طرابلس: الجامعة الليبية.

التازي، عبد الهادي، ١٩٨٧، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم**، المجلد الثالث، المحمدية.

العروي، عبد الله، ١٩٧٧، **تاريخ المغرب: محاولة في التركيب**، ترجمة ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت

هووك، صمويل، ١٩٨٣، **منعطف المخيلة البشرية: بحث في الأساطير**، ترجمة صبحي حديدي، ط١، دار الحوار، اللاذقية.

المشرفي، محمد، ١٩٦٩، **إفريقيا الشمالية في العصر القديم**، ط٤، دار الكتب العربية، المغرب.

ميادان، مادلين، ١٩٨١، **تاريخ قرطاج**، ترجمة إبراهيم بالش، ط١، منشورات عويدات، بيروت - باريس

## ثانيا : المراجع غير العربية


Acquaro, E., 1989. Seavi altofet di Tharros: Le urne dello scavo pesce-1. Rome: CNR.

ALbright, W.F. 1949. **The Archaeology of Palestine**, Baltimore, Md., Penguin.

ALbright, W.F. 1979. "The Role of the Canaanites in the History of Civilization". In: G. E. Wright, Eisen braums (ed), **Essays in Honor of W.F. Albright, the Bible and the Ancient Near East**, 328-335.

Aubet, M.E., 1993. **The Phoenicians and the west. Politics, Colonies and Trade**, trans. from the Spanish by M.Turton. Cambridge: Cambridge University Press.

Baramki, D. 1961. **Phoenicia and the Phoenicians**, first edition, Beirut- Lebanon.

Baurain, C., and Bonnet, C., 1992. **Les Phéniciens, Marinsdes Trois**, Continents Press.

Bisi, A.M., 1970. **La Ceramica Punica, Aspetti e problem,** Napoli: l'arte tipografica.

Bisi, A. M., 1987. "Chypre les premiers temps de Carthage", **Studia Phoenicia** VI, Pp.29-41, (Carthago), ed. E. Lipi?ski, Leuven: Peeters.

Bondi, S.F., 1988. City Planning and Architecture.Pp.248-283, in The Phoenicians, ed. S. Moscati.Venezia: Bompiani.

Cintas, P., 1950. **Céramique Punique**, Paris: Klincksieck.

Cintas, P., 1970. **Manuel d'archéologie punique 1,** Paris: Picard.

Cintas, P., 1976. **Manuel d'archéologie punique II**. Paris: Picard.

Culican, W., 1961. "Aspects of Phoenician settlement in the west Mediterranean", **Abr-Nahrain** I: 36-55.

Culican, W., 1966. **The first Merchant Ventures**, Printed in the USA.

Culican, W., 1982. "The Repertoire of Phoenician Pottery", Pp.45-78. In: **Phönizier im Westen** (Madrider Beiträge 8), ed.H.G. Niemeyer. Mainz: Zabern.

Debregh, J., 1988. Ombres et Lumiéres sur la topographie de la Carthage punique: les errances de Byrsa.Pp.91-99, in **Studia Phoenicia VI (Carthago)**,ed.E, Lipinski, Leuven: Peeters.

Dunand, M. 1965. Phénicie. In: **Supplément au Dictionnaire de la Bible** VII, 1142-1204.

Fantar, M. 1988. **Northern Africa, in: the Phoenicians**, under the scientific direction of S .Moscati, first edition, Milan.

Garbtini, G. 1980. **I Fenici: Storia Religione**, Roma.

Gsell, St., 1972 [1924]. **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord,** IV.Paris.

Harden, D., 1937. "The Pottery from the Precinct of Tanit at Salammbô, Carthage, **Iraq** 4: 59-89.

Harden, D. 1962. **The Phoenicians**, printed in Great Britain.

Harris, Z. 1936. **A Grammar of the Phoenician Language**, American Oriental society, New Haven.

Jodin, A. 1978. Carthage et le Maroc phénicien: Travaux et publication, **BAM** 11: 65-78, Rabat.

Lipinski, E., 1994. Économie Phénicienne: travaux récents et desiderata, **JESHO**, 327-337.

Moscati, S. 1963. La Question Fenicia, in: **ANLR** 8, Ser. 18, 490-510.

Moscati, S. 1970. **The world of the Phoenicians**, translated from Italian by A. Hamilton, Second printing, London.

Moscati, S., 1988. "Stela", **The Phoenicians**, Pp.304-327, ed. S. Moscati.Venezia: Bompiani.

Negbi, O., 1992. "Early Phoenician presence in the Mediterranean Islands: A Reappraisal, in: **AJA** 96, 92-105.

Niemeyer, H.G., 1990. Die Phönizischen Niederlasungen im Mittelmeerraum. Pp.45-64, in **The phönizier im Zeitalter Homers**, eds U.Gehrig and H. G. Niemeyer, Mainz: Zabern.

Picard, C., 1990. Les Sacrifice MOLK chez les puniques: certitudes et hupothéses, C., **Semitica** 39:77-88.

Picard, G-Ch., 1991. Mythes et histoire aux débuts de Carthage, **ACFP2**, Voll.11: 285-392.

Polybius (d.118 B.C.?) 1979. **The Histories**, Vol.I, trans.by W. Patton. Cambridge.

Ponish, M. 1967. Nécropoles Phéniciennes de la région de Tanger, in: **Etudes et Travaux d' Archéologie Marocaine** 111.

Pritchard, J. 1969. **Ancient Near Eastern texts relating to the OT**, Princeton: Princeton University Press.

Starger, L. E., and Wolff, S. R., 1984. Child Sacrifice: Religious Rite or Population Control? **BAR** 10:30-51.

Whitehouse. D. and Whitehouse, R. 1978. **Atlas Archéologique Universel**, Traduction et adaptation: Joëlle Chalavouse, Tallandier, Paris.

Yadin, Y. 1970. Symbols and Deities at Zinjirli, Carthage and Hazor, in: Essays in honor of N.Glueck, **Near Eastern Archaeology in the Twentieth century**, ed. by. A. Sanders , 199-231.